من أوهام العقل وأضواء القلب

برج بابـــل ؟!

للدكتور زكي مبـــارك

لما زرت بابل في سنة ١٩٣٧ بحثت عن البرج المشهور في التاريخ ، ولكني لم أهتد إليه ، برغم ما بذلت من العناء في التعرف إلى ما هنالك من رسوم وأطلال

فكيف بخلت الأقدار بحرماني من الاهتداء إلى معالم ذلك الأثر النفيس، وكان أول رمز لما فُطرت عليه الإنسانية من تنافر الآراء وتناحُر الأهواء ؟

كان برج بابل خليقاً بالخلود ، لو عرف بنو آدم مغزاه الدقيق ، فصانوه من عوادي الزمان . وهل كانت بلبلة الألسنة حول ذلك البرج إلا إيذاناً بأن الإنسانية شبّت عن الطوق ، ولم يبق إلا أن تنتفع بمزايا الشقاق والنزاع والخلاف ، وهي معانٍ ظاهرُها قبيح ، وباطنها جميل ؟

لو عاش برج بابل لكان مَزَاراً من أقدس المزارات ، فحول رحابه طارت أول شرارة من ضريم الصراع بين الأجناس والألوان ، وبين حناياه ذاق الإنسان الأول مرارة الحيرة ، وهي مرارة جزيلة النفع ، وإن كانت كريهة المذاق

ولو عرفنا تاريخ برج بابل لعرفنا في أي عهد بدأ الصيال بين الألسنة والعقول ، فما نطمئن إلى ما قالت الأساطير في تحديد ذلك التاريخ ، وهي لا تبعد به غير عشرات من القرون ، وأنا أكره أن تصدُق تلك الأساطير ، لأني أحب أن يكون عهد أسلافنا بالخلاف أبعد من تلك القرون بآماد طوال طوال

لو عثرت على برج بابل ، أو اهتديت إلى شيء من رسومه الهوامد ، لأضيف اسمي إلى أسماء من خدموا الإنسانية بكشف بعض المجاهيل من حَسَبها العريق

ولكن الحظ أراد غير ما أريد ، فلم أعرف من بابل غير ما يعرف سواد الناس ، ولم أشهد غير بقايا الحدائق المرفوعة فوق قواعد من الجدران ، وهي جدران لم يفكر في هدمها الزمان ، فبقيت شاهداً على مطامح أهل بابل في السموّ والعلاء

لا بدّ من برج بابل ، لا بدّ ، لا بدّ ، ولن أستريح أو أهتدىَ إلى مكان ذلك البرج ، فهو المهد الأول ، المهد الذي نشأت فيه شياطين الخلاف ، والخلاف هو صاحب الفضل في تأريث جمرات العقول ، ونزوات القلوب ، وشهوات الأرواح ، وبدَوَات الأحاسيس

الحمد لله ! الحمد لله ! لقد وجدت البرج المنشود ، ولكن أين ؟ لم أجده في بابل ، وإنما وجدته في قلبي ، وأين بابل من قلبي ؟ القلب الذي أجهله أشد الجهل ، وإن كنت سمعت أنه يقيم بين ضلوعي ؛ والجيران قد يجهل بعضهم أسرار بعض . وستعرف يوماً أن العين ليست ترجمان القلب في جميع الأحيان ؛ فلكل من القلب والعين وجودٌ مستقلٌ تمام الاستقلال ، وإلا فكيف يقع في كل يوم أن تمد العيون بنعيم لا تسمح به القلوب ؟

الجاهل هو الذي يتوهم أن العين ترجمان القلب

وقد جهلتُ يوماً فتوهمت أني أعرف سرائر قلبي ، ثم عرفت أني واهمٌ فيما توهمت ، فما كان قلبي إلا غابة تعيش فيها ألوف الألوف من أنواع الشجر والنبات والطير والحيوان والأفاعي والصِّلال

وآية ذلك أني لا أعرف أسباب أفراحي وأتراحي إلا في أندر الأحايين ؛ ثم يُغَمُّ عليّ الأمر فلا أدري مصدر سعادتي أو منبع شقائي ، فأفزع إلى ما يفزع إليه الصوفية عند البسط والقبض بلا وعي ولا إدراك . ولو وعيت وأدركت لنفذ سهمي في جنب السعادة أو دفع الشقاء

وأنا مع ذلك اهتديت إلى ما لم يهتد إليه ديكارت ؛ فديكارت فطن إلى أنه يفكر فعرف أنه موجود ، وأنا فطنت إلى أن برج بابل أقيمت صروحه فوق سواد قلبي ، فاستشعرت الخوف من ظلمات قلبي ، وهي ظلمات يعجز عن تبديدها نور القمر وضياء الشمس ، لأنها ألفاف من الشر المدفون في أصول تلك الغابة الشجراء

وما أشد خوفي من قلبي ، وهو قلبي !

وآه ثم آه من الجبن عن مكاشفة العدوّ الذى يلبس ثوب الصديق ! ؟

كان يطيب للشعراء أن يقولوا إنهم يعيشون بلا قلوب ليبرروا عجزهم عن استبدال حبيب بحبيب.

وأقول : إنى يئست من الأمل فى العيش بلا قلب ، وأين المفرّ من قلبى وهو قِطارٌ من أحابيل وعقابيل شُدّ بعضُها إلى بعض بسلاسل مصنوعة من أوهامى وظنونى ، وأنا رجلٌ مخلوق من أوهام وظنون ، وإن شهد خوفى من القلب بأنى على شىء من العقل ، والعقل أضعف حلية يتحلى بها الآدميون ، فلو عاش بنو آدم بعقولهم فى جميع الشؤون لكان مصيرهم مصير الأنعام ، فلم يزينوا الوجود بروائع الآداب وغرائب الفنون

لم أستطع التخلص من أوزار القلب ، ولن أستطيع التخلص من أثقال العقل ، فما عيشى فى صحبة هذين العدوين ؟ وما قيمة وجودى وأنا محروم من نعمة الاستقلال ؟

وهل أنسى بلائى بعدوان القلب والعقل وقد عانيت منهما فى الليلة الماضية ما عانيت ؟

وما الليلة الماضية ؟ هى ليلة من ليالى ، فما رحمتنى الأقدار من معاناة الصراع بين القلب والعقل منذ اليوم الذى عرفت فيه أن العيون لا يكون لها سِحرٌ حرام أو حلال إلا فى نور القمر أو ظلال الرياض

إن واجهت العيون ضياء الشمس فعلى سحرها العفاء ، لأن الشمس تحيل العيون إلى جوارح تعجز عن الختل والفتك . وهل تصنع الغلالة المنسوجة من نور القمر أو ظل الروض حين تواجه الطرف الكحيل إلا كما تصنع الغلالة المنسوجة من الحرير حين تطوّق الجسم اللطيف ؟

الحرير يزيد الأجسام النورانية صفاء إلى صفاء ، وهى تتخايل من تحته كما تتخايل الكواكب من فوق السحاب الرقيق

وأنا لم أصاول سهام العيون إلا فى نور القمر أو ظلال الرياض ، فأين كنت فى الليلة الماضية وقد كان « برج بابل » بعض ما تشق يحمله ضلوعى ؟

كنت فى ضيافة قرين : قمر الروض وقمر السماء ، ويا ويل من يعيش فى مصر الجديدة وهو يعانى مكاره الصراع بين القلب والعقل !

وفى لحظات أقصر من عمر الطيف تحولت دنيانا من صفاء إلى كدر ، ومن كدر إلى صفاء ؛ ثم انتهينا إلى قطيعة قد تقصر وقد تطول ، فما استطاع الدهر ولن يستطيع أن يفرّق بيننا أكثر من أيام أو أسابيع

سمعت صوت العقل فأتممت لأجرن ذلك البدر إلى آخر الزمان وما هى إلا لحظة حتى تحركت الحيات والثعابين فى برج بابل فأصختُ إلى ما تجود به أفواهها الفصيح من فحيح ، فكنت والله كمن يسمع نشيداً ترتله ملائكة السماء

أنا مشدودٌ مشدود إلى قِطار الوجود ، فأين من يرحمنى من مصارعة العيون فى نور القمر أو ظلال الرياض ؟

الليلة الماضية ، وما أدراك ما الليلة الماضية ؟

هى ليلة من ليال ، ومن لم يعش كما عشت فليس من حقه أن يقول بأنه اكتوى بنار الضلال بين الهدى والضلال

وما ليالى الحاضرة بين الليالى ؟

مصباح وقلم ومداد وقرطاس ، وآمال بيض ، وآلام سود ، وقرار فى دار تواجه الصحراء فى ليلة قمراء ، والقمر يشجع أغانى الغيافى على الدبيب والوثوب

ليالى الحاضرة ليلة كرب وبلاء ، فبرج بابل تعتلج فيه خواطر أشد سواداً من قلب الثعابين التى لطمت وجهها منذ سويعات فى أعقاب موجة من موجات العتاب ، وبرج بابل يقول بأن الحوادث تنذر بالشر الوبيل فى مدائن منها الأسكندرية وبور سعيد والسويس وبغداد ، وتلك أول مرة صرح فيها برج بابل بأشياء وأشياء ، فمتى أرجع إلى جهل ما فى ذلك البرج من أحابيل وعقابيل ؟ !

أنا أملك أمرى فى الليلة الحاضرة ، فليس بينى وبين دار هوای غير خطوات ، ولكن بلائى صيغ من الليالى الماضى ، فمن الليالى الماضى نُسجت عواطفى وأحلامى وأوهامى وظنونى ، وهل أنا إلا مجموعة آراء وأهواء كُتبت صحائفها الأولى فى القاهرة ودمشق والقدس وبغداد وقرطبة وتونس وباريس ؟

لو فكرت فى إحصاء المدائن التي تعلمت فى مدارسها المعروفة والمجهولة ، ولو فكرت فى إحصاء من استفدت بمعارفهم من أهل الشرق وأهل الغرب ، لوصلت إلى القول بأنى شخصية دولية لا يستقل بها بلدٌ عن بلد ولا جيل عن جيل ، فكيف أملك الفرار من الجزع لآلام المكتوين بنيران الحرب ولو كانوا — رسمياً — من أعدائى ؟

ولو فكرت فى أن الثانية التى لطمتْ وجهها الجميل فى أعقاب العتاب لم تخرج على الأدب فى خطابى إلا وهى مثقلة بأوهام نشأ بعضها فى الشرق وأخذ بعضها عن الغرب لنظرتُ إليها كما أنظر إلى الطفل الذى يُجرم وهو غير مسئول

وهل تسأل صحراء مصر الجديدة عن الإهمال وقد هجرها النيث ؟

إن كان ذلك فسأسأل القلوب التى أذويتها بجفائى ، وما كنت من الجافين ، لولا الشواغل التى صيرتنى أقسى من الجلمود فى محاجر أسوان

القمر فى ليلتى الحاضرة جميل جميل ، ولكن ما قيمة جماله وأنا مصدودٌ عن الاستصباح بنوره الوهّاج ؟

وما طِيبُ النوم والأحلام لمن حُرِموا طيب نجواى ؟

ألم أقل لهم : إن الذى ينام بمصر فى المقمرات من ليالى الصيف ليس إلا فطعة من ثلوج الشمال نُقِلَتْ ظلماً إلى هذه البلاد ؟

النوم ضربٌ من الموت ، وهو الموت الأعظم لمن يجهل فضل الليالى المقمرة بمصر فى أوقات الصيف

لو كنا معاً فى هذه اللحظة لعرف البدر أن السعادة ليست مقصورة على أهل السماء ؟ إن صحّ أن أهل السماء سعداء ، وكيف يسعدون وما عرفوا ظلم المواطف ولا طغيان الأحباب ، وإلا فكيف استطاع القمر أن يحتفظ بصباه على مرّ الدهور وكأنه فلان فى البلادة والغباء ؟

وسيصنع الدهر ما يصنع بالغصن الذى آذته نسائم الحب ، وإن عاش وعشنا فسنقيم المناحات فى حضرته العالية على الظل الذى زال عند « الزوال »

القطيعة باقية ، ولن نسأل عن تلك السرحة إلا يوم تمسى وهى مهددة بأرواح الخريف ، فلتصنع بصيرها ما تشاء ، فلن تكون أكرم على الدهر من نخلتَىْ حلوان فى أشعار القدماء

ومن يرعى تلك النخلة وقد تخلّى عنها الحارس الأمين ؟

ترعاها الفواقر والقوارع والخطوب !

يرعاها الجهل بالسر المكنون فى ضمائر الشعراء !

وإن استطال الجمال على الشاعر فبشره بالحماق والأفول

لغير وجهكِ الجميل يوجّه هذا النذير ، يا صاحبة الجيد الأغيد والمعصم الريّان

وما الدنيا وما الوجود إذا أمسى جمالك الفتان وهو طلل من الأطلال ؟

سيصنع بك الدهر ما يصنع ، لأنه موكل بإذلال الأقوياء ، ولكنه سيعجز عن محو ما دار بيننا من أكواب العتاب فى تلك الليلة القمراء

هى ليلة من ليال ، وسأعرف كيف أنتقم لنفسى ، إن طاب لك الاعتصام بالهجر والصدود

أما بعد فقد رجعت إلى قلبى لأشهد بعض العجائب من برج بابل ، فماذا رأيت ؟

رأيت وجودى مقدوداً من أحجار ذلك البرج ، ورأيت عواطفى وأحلامى مشبوبة أو مغبوسة من اللهب الذى يتأجج فى أركان ذلك البرج ، ورأيتنى جديراً بما اتصف به أهله من الحيرة والقلق والانزعاج

رأيت ورأيت ، وكأننى إنسان وقف يتلهى بصراع الأسود ، وهو يجهل أن فيها أسداً قريب العهد بالاستئناس ، فهو يرجع إلى الشراسة حين تسمح الظروف

رأيتنى واقفاً على حافة الهاوية بلا رفيق ولا معين

رأيتنى أحمل القلم لأمزق به ما بينى وبين الناس من أواصر وصلات

رأيتنى أساهر النجوم وهى لا تدرك من همى غير أطياف

رأيتنى انفصلت عن « برج بابل » فلا أدرى ما يثور فيه من مصاعب وأهوال

رأيت ورأيت